الباب الأول

قضية الأسرى وحربي الاستنزاف وأكتوبر في الأدب الإسرائيلي

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

قضية الأسرى والمعتقلين في حرب (١٩٥٦)

تناول الأديب الإسرائيلي «أهارون ميجد»[(١)] ، بعض الجوانب الإنسانية

---

(١) الأديب الإسرائيلي الواقعي (أهارون ميجد) :

انطلاقاً من المقولة الشهيرة «الأدب تعبير عن المجتمع» ، وحيث إنه لا يمكن للباحث أن ينتزع الكاتب، أو يفصله عن مجتمعه، باعتباره عضواً فيه، يتأثر به، ويؤثر فيه، فإن السيرة الذاتية للكاتب تعتبر بحق مصدراً رئيساً لدراسة إنتاجه الأدبي، ولفهم البيئة المحيطة به، كما أن دراسة العمل الأدبي تعين الباحث، أيضاً، على تحديد العناصر المؤثرة والمكونة لحياة الكاتب بوجه عام (جلاء إدريس، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الإسرائيلي المعاصر، دار الثقافة العربية القاهرة ٢٠٠٣، ص٦٥).

ومن هنا، فإن دراسة جذور الأديب الأولى، وخاصة إذا كانت في الشتات لها أهميتها، وتأثيرها البالغ على حياة الأديب، وإنتاجه على مدى مشوار حياته، وفي مجتمعه الجديد (إسرائيل) المغاير، تماماً، لمجتمعه الأول (الشتات).

ولد أهارون ميجد، عام ١٩٢٠ ، بمدينة (فولتسلفيك) ببولندا ، وهاجر إلى فلسطين، عام ١٩٢٦ ، حيث حطت قدماه فلسطين في سن الخامسة والنصف، وعلى الرغم من أنه تربى، وترعرع، وشب على أرض فلسطين، فإنه يقول:

«إنني شخصياً، أولاً، وقبل كل شيء، لست من مواليد فلسطين، وكنت لفترة قريبة أصنف بالطبع ضمن الأشخاص القادمين من الشتات».

وكان أول احتكاك له في حياته الجديدة على أرض فلسطين مع العرب، حيث لاقى كل احتضان وحنان كطفل، حيث كان لذلك أكبر الأثر في نظرته الإيجابية للحق العربي في فلسطين، فيقول: « في صباح يوم مشمس، في أبريل ١٩٢٦ ، وصلنا إلى يافا بالسفينة، وكان البحر هائجاً، ورست السفينة على مسافة من الميناء، وقام أحد البحارة العرب برفعي من على سطح السفينة بين ذراعيه، ثم أنزلني في قارب صغير، حيث نزلنا على رصيف الميناء، وقام الموظف الإنجليزي بفحص جوازات سفرنا، وبعدها كانت مرحلة العزل الصحي» .

وسارت حياته بعد ذلك ما بين تل أبيب ورعنانا ، حيث مشوار التعليم، ويقول: أنه أصبح صباراً، ورافق=

والأخلاقيـة المتصـلة بـالحرب، مثـل مشـكلة الأسرى، وسـلوكيات الإسرائيليـين تجاههم، ومحاولة قتلهم، والتخلص منهم.

وقد طرح ذلك في رواية (حادثة الأبله ١٩٦٠)، حيث إنها عبرت عن قضايا الشباب اليهودي، وصراعاتهم مع الحياة، والتخبط بين الالتزام بالقيم الإنسانية، وبين الالتزام بأهداف وأيديولوجية الصهيونية، المتمثلة في الاستيطان في الأراضي العربية، والقتل والاعتقالات لأصحاب تلك الأرض، وإلزام كافة الشباب اليهودي بمبدأ «اقتله قبل أن يقتلك»(المقصود أي إنسان عربي على الإطلاق)، وتبرز الرواية تردد البطل، وصراعه من أجل التكيف مع الآخرين، وكذا تردده وضعفه أمام إمكانياته، وما هو مطلوب منه أن ينجزه مع الآخرين، مخالفًا لفكره، ومبادئه. ومن هنا، يتجسد ضعف الجندي في التفكير في الانتحار.

وأمام تلك الخطوط الدرامية، التي يمر بها بطل الرواية، يخرج علينا الكاتب بنبوءة الخلاص لبطل الرواية من ذلك كله، وهو اندلاع حرب (١٩٥٦)، ومشاركته فيها، تاركًا وراء ظهره كل معوقاته، ومشاكله، ومتناسيًا لغربته، واغترابه بين الجميع، وسلبياته، اجتماعياً، وقومياً، وذلك من خلال إلقاء نفسه في أتون الحرب والقتال. وهذا الاتجاه هو اتجاه ساد الأدب الإسرائيلي، وكان يرى أن الحرب، ودق نواقيس الخطر، سوف تجعل الجميع ينسون الفوارق فيما بينهم،

= العرب من شتى الجنسيات من خلال عمله في الشحن بمواني فلسطين البحرية، وشارك في المعسكرات الشبابية، والاشتراكية من خلال المستوطنات، وسافر إلى الولايات المتحدة في نطاق العمل الشبابي، عام ١٩٤٦، وعمل ملحقاً ثقافياً، وكتب في عدة مجالات ما بين الرواية، والقصة القصيرة، والمسرحيات، وقصص الأطفال، وفاز بعدة جوائز.

وله أسلوب متميز في وصف البيئة، و لشخصيات، مطابقة للواقع، كما هو في تناولنا لبعض القضايا، التي أوردها في إنتاجه، وتهم الباحث، والقارئ العربي.

ويطرحون مشاكلهم الفردية جانبًا، وتذيب التعددية، وعدم الاتفاق من خلال الانصهار تحت لواء الحرب، كنوع من الخلاص الفردي على المستوى الشخصي، مما يعانيه من ضياع، وتمزق، وعدم انتماء.

لقد كان الأدباء الإسرائيليون يرون أن مجرد الانخراط في الجماعة تحت هدف واحد، وهو الحرب من أجل البقاء، يمثل مخرجًا من كل الأزمات العامة، وينقذ الفرد من الضياع، والتخبط، ومن سلبية التأقلم، وعدمية الانتماء، وهو ما يمثل صورة واضحة، وفريدة لإشكالية المجتمع الإسرائيلي.

ويبرز الكاتب الصورة الإيجابية للبطل داخل صفوف الجيش، موضحًا الحل الأيديولوجي لسلبيته، فيقول:

و« الله أكبر»، أي معجزة حدثت، لقد اندلعت الحرب، وأنقذتني من الموت»[1].

وهذه الجملة التي وردت على لسان الشاب الإسرائيلي، تعكس بلا شك قمة السخرية التي اعتاد الأديب أهارون ميجد استخدامها في رواياته، حيث إن البطل يجد في الحرب، التي هي المرادف الطبيعي للموت، والفناء، والدمار، إنقاذاً له من الموت.

إنه يفضل الموت من خلال القتال على الموت البطيء، منطويًا على صراعاته الداخلية.

ويجسد« ميجد» هذه الحالة مرة أخرى في جملة موجزة، ولكنها دالة على نفس التوجه الساخر، حيث إن البطل (بطل الرواية) الذي فشل في التأقلم مع الجماعة في حياته الخاصة، سرعان ما يتحول إلى واحد من الجماعة الجديدة، وهي الكتيبة

(١) أهارون ميجد، رواية حادثة الأبله، هكيبوتس همؤ حاد، تل أبيب، ١٩٦٠.

العسكرية، وهو في حالة من النشوة:

حيث جاء على لسانه إبان انضمامه لصفوف المعركة:

«أصبحت أحد أفراد كتيبة، واحداً من الكثيرين، واحداً من الشعب، صافحت الأيدي، وضحكت، ألقيت التحية على رجال دون سابق معرفة، أصبحوا كلهم أصدقائي»[1].

ولكن هذا الجندي في مسار خدمته العسكرية يواجه موقفاً يعرضه للمحاكمة العسكرية، وهذا الموقف يتمثل في عدم تنفيذه لأوامر قيادته بإطلاق النيران على الأسرى المصريين العُزل في واحد من المعسكرات المخصصة لتجميعهم.

ومهد ميجد لهذه القضية، من خلال وصفه لمعسكر معد لإيواء المعتقلين والأسرى، حيث كلف هذا الجندي بنوبة حراسة، ثم صدرت له التعليمات بدخول المعسكر، وإطلاق النيران على المعتقلين، ولكنه لم يمتثل لهذه الأوامر، وتجمدت يداه، ولذا تم تقديمه للمحاكمة.

ومن خلال جلسات المحاكمة العسكرية تبرز عناصر القضية واضحة من خلال الحوار بين القاضي العسكري، والجندي الذي يتمتع بنزعة ضميرية إنسانية:

- **القاضي العسكري في توجيه الاتهام للجندي:**

آمل أن تكون مدركاً لسبب سقوطك ومحاكمتك.

- **الجندي:** جاءني صوته من طرف القاعة، مددت يدي جانباً، واتضح لي ،الآن، فحسب، ما هي التهمة التي سيتهمونني بها، أجبت بصوت خافت: كانت هذه حادثة.

(١) المصدر نفسه .

تساءلت بصوت عال: كيف؟

أجبت مرة ثانية، قائلاً: كانت هذه حادثة.

– قال القاضي، وبغموض كما لو كان الصوت يأتي من بعيد جداً، ولا يكاد يسمع، وربما فهمت فحسب، من حركة شفتيه، أنه يقول:

«إذا لم تبادر بقتل من هو آت (العربي)، قتلك» [١].

وهكذا يتضح من خلال هذا المشهد، ومن جملة الختام فيه، لماذا يحاكم الجندي؟ إن الجندي يحاكم لأنه لم يطبق الشعار العسكري الذي يتبناه «الجيش الإسرائيلي»، ويعتبره بمثابة «عقيدة قتالية»، ولذا فإن الجندي الذي يتجاوزه، يستحق المحاكمة العسكرية، لأنه طبقاً لذلك قد عرض حياته للخطر، بل والقتل (من وجهة نظر قادة الجيش الإسرائيلي).

وهنا نجد أن أهارون ميجد بإثباته لهذا الشعار على لسان القاضي العسكري، إنما هو يؤرخ لتقاليد « الجيش الإسرائيلي»، ولموقفه من قضية تفجرت بعد أربعين عاماً، لتصبح وصمة عار في جبين العسكرية الإسرائيلية، وهي قضية قتل الأسرى العرب في حرب ١٩٥٦، عن عمد، وبأوامر عسكرية.

«لقد تعالت أصوات شريفة في إسرائيل تدين هذه الجرائم (جرائم قتل الأسرى في حرب ١٩٥٦)، فقد وصف الصحفي والسياسي الإسرائيلي، «يوري أفنيري»، ما فعله العسكريون الإسرائيليون في الأسرى المصريين، بأنه نموذج لممارسات فرق العاصفة النازية، وتقدم أفنيري بشكوى ضد السفاح «أرييه بيرو»، واثنين من الضباط المتقاعدين، وأكد ضرورة محاكمتهم كمجرمي حرب»[٢].

(١) المصدر نفسه.

(٢) كريمة كيرلس، الأخبار (المصرية)، العدد ١٣٥٠٠٨، ٢٢/٨/١٩٩٥، ص٣.

obeikan.com

وهنا يتطابق الدليل الوارد في سياق المحاكمة، مع ما أثير حول هذه القضية حول أبطالها الحقيقيين، كواقع حدث بالفعل« شهادة إسرائيلية جديدة »المحاكمة لمن يرفض قتل الأسرى المصريين. وروى، أيضاً (ناحوم بن تسفى)، البالغ من العمر حالياً (١٩٩٥)، ستين عاماً، ويمتلك مطبعة بمدينة القدس، لصحيفة معاريف، «أنه ظل لمدة عام كامل لا يتحدث مع قائده، لأنه رفض الاشتراك في قتل أسرى مصريين، أثناء حرب ١٩٥٦. فقال ناحوم إنه كان في هذه الحرب ضمن فصيلة كان مقرر لها الانضمام للكتيبة ٨٩٠».

ويضيف أنه وزملاءه تلقوا أوامر من قائد الكتيبة بإطلاق النيران على الأسرى المصريين، وأنه، وجندي آخر رفضا إطلاق النار على الأسرى، وهنا هددهما القائد بأنه سيقدمهما للمحاكمة، ورد عليه ناحوم بأنه لو فعل ذلك فن يتردد في فضح أمره عند العودة من الحرب، وغضب الضابط جداً، ولم يقدمه للمحاكمة، وظل عاماً لا يحدثه»[1].

ومع استمرار محاكمة الجندي في رواية الأديب الإسرائيلي الواقعي، أهارون ميجد، نلمس صدق الصورة مع ما ورد حول تلك القضية، بالفعل على لسان الأبطال الحقيقيين أثناء الحرب.

- الجندي المتهم: ومع فهمي لما يدور في المحاكمة، شعرت بشيء من الراحة، فالتهمة ليست خطيرة جداً، وعلى أية حال، فإن موتي هو أمر يخصني أنا.

(وكما لو كان القاضي قد سمع ما فكرت فيه).

فقال القاضي: بطبيعة الحال فإنك بكونك جندياً فإن حياتك هي ملك للدولة.

الجندي: وبشكل آلي، قفزت منتصباً، رأديت التحية العسكرية، سمعت ضوضاء

(١) كريمة كيرلس، الأخبار المصرية، العدد ١٣٥٠٠١٤، ٢٩/٨/١٩٩٥، ص ١٣.

على الأريكة، لاحظت أن عدداً من الجالسين قد اعتدلوا، والتفتوا كل نحو الآخر، وهم يتهامسون بشيء ما.

أشار القاضي بحركة من يده، ليوضح أنه بإمكاني العودة لوضع استرح (وقفة عسكرية للراحة)، وسألني:

القاضي: ماذا عندك لتقوله في هذا الصدد؟

الجندي: عن أي شيء؟

(كان الهرج والهمس على الأريكة أكبر مما كان في بدايته، وترامى إلى ضحك خفيف).

أومأ القاضي برأسه إلى أسفل، ونظر إليّ بطرف جبينه، منتظراً لجوابي، ربما أكون قد أخطأت.

فكرت ربما لم يكن من قبيل الصدفة أنني قتلت، حاولت أن أتذكر الوقائع التي حدثت في اللحظات الأخيرة، قبل حدوث الألم الشديد الذي شق صدري.

ويستمر الجندي: تصورت أن سكوتي قد طال جداً، ولاحظت أن كل الحاضرين قد فقدوا صبرهم بسببي.

قلت: لم أستطع إطلاق الرصاص، لقد تجمدت يداي.

لاحقني القاضي بالسؤال: ما السبب؟ كما لو كان متوقعاً تلك الإجابة نفسها.

الجندي: قلت: لقد كان الوقت صباحاً.

قال القاضي: يعني؟

قال الجندي: يعني هذا أنه كان هناك نور، وأنا لا أستطيع قتل إنسان، وأنا أرى

obeikan.com

وجهه[1].

في هذا الجزء من المحاكمة، يركز الكاتب على إبراز الجندي في جبهة، يقف فيها وحيداً أمام القاضي، وجميع الحاضرين، الذين يستنكرون موقفه، في الوقت الذي يحاول فيه أن يبرر موقفه بعدم إطلاق الرصاص على المعتقلين بالمعسكر (أسرى حرب ١٩٥٦).

وكما انتهى المشهد الأول بإثبات الشعار، والمبدأ العسكري لتقاليد الجيش الإسرائيلي، فإن هذا المشهد ينتهي بإثبات وجهة نظر الجندي المقدم للمحاكمة، في مخالفة هذا المبدأ، وهو مع حجته (أنه لا يستطيع أن يقتل إنساناً، وهو يرى وجهه).

وهذا التباين بين موقف القاضي العسكري، الممثل لتقاليد العسكرية الإسرائيلية، وبين موقف الجندي الرافض للامتثال لهذه التقاليد، هو تباين يضع تأكيداً على الفارق بين ما هو لا إنساني، وما هو إنساني، بين تقاليد نزعت عنها الضمائر والأخلاق، وبين إنسان فرد قرر أن يتصرف وفقاً لضميره وأخلاقه الإنسانية، وليس وفقاً للتقاليد العسكرية الإسرائيلية.

ويستمر حوار المحاكمة:

نظر القاضي في الوثائق، التي أمامه، وقال للجندي:

لقد تم إرسالك لتحل محل أحد الحراس على معسكر اللاجئين، فظللت متنحياً جانباً؟

الجندي: اعترفت، نعم .

قلب القاضي ورقة من كومة لأخرى، وأصبحت الخشخشة تسمع، الآن، وكأنها

(١) ميجد، رواية ...، مصدر سبق ذكره.

صدى رعد في السحب.

وقال القاضي: لقد بقيت أنت بالخارج.

الجندي: كان سكوتي بمثابة تسليم بما قال.

سأل القاضي: لماذا؟

قال الجندي: هذا لم يكن لأنهم (الأسرى)، لم يكن باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم.

- حدق القاضي فيّ بعينيه، وقال: «القتلة».

الجندي: إنهم لم يبدوا في نظري قتلة، ربما لأن أشعة الشمس الساطعة قد أضاءت وجوههم بلون قرمزي، عاد الضحك مرة أخرى يصدر من الجالسين على الأريكة.

ضحك القاضي بسخرية، وقال: أي أنك أردت تبرئة ذمتك.

الجندي: وحيث إنني لم أجب.

أضاف القاضي قائلاً: أكان من الأنسب لك أن يقوم الآخرون بتنفيذ المهمة[1].

ونتوقف عند مضمون الفقرات السابقة، نجدها تفرز المعطيات التالية:

١- كان هناك معسكر لتجميع المعتقلين العرب، بغرض التخلص منهم، وذلك في أعقاب حرب ١٩٥٦.

٢- لم تكن مهمة الجندي هي الحراسة على المعسكر فحسب، ولكن الدخول لتنفيذ القتل داخل المعسكر.

٣- الأسرى داخل المعسكر كانوا من العُزل، وبطبيعة الحال لا يملكون الدفاع

---

(١) المصدر نفسه.

obeikan.com

عن أنفسهم.

ويستمر حوار المحاكمة:

القاضي يخاطب الجندي المتهم : يا صديق هذا الجيل، هل كنت على استعداد للتضحية بحياة إخوانك لكي تنقذ أرواح القتلة؟

إننا لو كنا اعتمدنا عليك لهلكنا جميعاً، ماذا لديك لتقوله لتبرئة نفسك؟

ماذا؟

ترددت الأصداء في جنبات القاعة.

ويقول الجندي: شعرت بأن قدماي ترتعدان، لم أكن أتصور شخصياً، أن هذا الإنسان المعتدل، يمكن أن يثور بهذا الشكل، كلما أردت تحريك شفتاي لم يستجيبوا لي، وانغرست نظرات الجالسين على الأريكة فيّ كالسهام، والذين فارت وجوههم باتهام يريد الانتقام.

ومع اقتراب نهاية جلسة المحاكمة، يفكر الجندي مستعرضًا ما اعترف به أمام القاضي، فيقول:

فكرت فيما قلته، وفيما لم أقله، غضبت من نفسي، لماذا كان تقديمي للمحاكمة؟

فأخيراً، حياتي وقوتي تلك أمور تخصني وحدي، ولو أنا جندي، ولا يحاكم جندي قد قتل في معركة، ليس هناك أي ضرر من ذلك يخص الدولة.

وفيما بين هذا وذاك، فكرت في قتل نفسي، لماذا لم تكن عندي الشجاعة للقول بما شعرت به في الأيام الأخيرة، وما أعلمه حقيقة[١].

ويواصل القاضي توجيه الاتهامات للجندي:

---

(١) المصدر نفسه.

وهنا فحسب، في المعركة وجدت عندك الشجاعة التي تمنعك من إبادة أعدائك، حتى لا تسبب لهم الألم؟

قال الجندي: نعم أيها القائد.

القاضي: ولتضع حدًا لنهاية حياتك؟ [1].

يرصد الأديب الإسرائيلي الواقعي أهارون ميجد، من خلال هذه المحاكمة وقائع أحداث وقعت أثناء حرب ١٩٥٦، وقد كان هذا الرصد معبراً عن الزمان والمكان. ورغم مرور هذه السنوات على تلك الأحداث، التي سجلت من خلال الأدب، نجد اليوم تفجيراً للقضية من خلال أصوات عالية في الصحافة الإسرائيلية، تندد بما حدث خلال حرب ١٩٥٦ ، من انتهاك للقوانين، وقتل لأسرى العرب العُزل، ومما يؤكد هنا واقعية الرصد الأدبي للكاتب الواقعي (ميجد)، أنه صور وعرض القضية، من خلال محاكمة جندي رافض لتنفيذ أوامر القتل والإبادة للعزل، فنجد أن القضية أثيرت في الوقت الراهن، أيضاً، من خلال شهادات حقيقية عن محاكمة من كان يرفض بالفعل تنفيذ القتل والإبادة لأسرى الحرب (شهادة ناحوم أحد جنود الكتيبة ٨٩٠... برفضه أوامر قائده بقتل الأسرى).

وفي ختام جلسة المحاكمة، يُصر القاضي (وهو أحد القادة العسكريين الإسرائيليين) على إدانة الجندي، فيوجه الانتقاد الحاد لسلوك الجندي، ويسخر من مشاعره الإنسانية تجاه الأسرى العرب:-

ضحك القاضي، قائلاً: هل تريد أن نكون جميعاً أتقياء (عادلين).

قال الجندي: بقدر الإمكان.

(١) المصدر نفسه .

قال القاضي: وأن نحب أعداءنا، ونغفر لهم.

قال الجندي: لسنا بأفضل منهم، فهم يريدون أن يعيشوا مثلنا.

عند ذلك حدثت ضوضاء وحركة كبيرة من الجالسين على الأريكة، وسمعتهم يقولون، هذا الأمر لابد أن يتوقف.

فنظر إليهم القاضي، وانتظر سكوتهم.

القاضي: معنى هذا أنك غير معترف بعدالتك.

الجندي: قلت في همس: حياتي هي عدالتي.

القاضي: إذا كان الأمر كذلك دافع عنهم (الأسرى العرب).

ودوى صوت القاضي في أرجاء القاعة:

قائلاً: دافع عنهم بكل قوتك.

الجندي: ارتعدت شفتاي، وقلت:

«في الوقت الذي أقتل فيه الآخرين تفقد حياتي عدالتها».

وحسم القاضي الموقف، بقوله للجندي:

إذن أنت تبحث عن العدل فيما وراء الحياة[1].

وهنا في هذا المشهد الأخير، نجد أن الحوار بين القاضي العسكري، والجندي المتهم، يتجاوز الموقف، ويتحول إلى حوار شبه فلسفي، وهو أي عدل يجب أن يسود عند لحظة الاختيار: هل هو العدل الخاص بالإسرائيليين، والذي يحتم قتل الأسرى؟ أم العدل الإنساني الذي يقدس قيمة الحياة؟

(١) المصدر نفسه.

obeikan.com

وهو سؤال طرحه الأدب العبري الإسرائيلي الذي تعاطف مع المأساة، التي كانت الصهيونية سبباً في حدوثها لأبناء الشعب الفلسطيني، وطالب بعض هؤلاء الأدباء خلال طرحه، أن يكون العدل المطبق هو عدل الإنسانية، وليس عدل الصهيونية، حيث إن تطبيق العدل الإنساني لابد وأن يكون على حساب العدل الصهيوني، أي بما يتناقض مع ما تسعى الصهيونية لتحقيقه من أهداف ترمي إلى التوسع في الاحتلال، ومصادرة الأراضي، ونفي الآخر الفلسطيني بقتله، أو طرده، وعدم الاعتراف بوجوده.

وقد حسم القاضي هنا هذه القضية، من خلال بطل هذه الرواية الجندي الماثل وراء القضبان، لصالح (العدل الإنساني)، بالرغم من رفض القاضي العسكري، وجمهور الحاضرين لهذا المنطق.

وعليه نرى أن الكاتب الواقعي أهارون ميجد، قد رصد بصدق حالة، وقيم المجتمع الإسرائيلي، إبان حرب ١٩٥٦، والتصرفات اللا إنسانية تجاه الأسرى العرب، من قبل الجيش الإسرائيلي.

وسلط الأضواء على الجندي الذي يمثل الطرف المناصر للعدل، والرافض للقتل والإبادة، ممثلاً للجانب الإنساني الذي يحمل قيماً ومبادئ يدافع عنها، ويتمسك بها، في مقابل الجميع الذين يرون غرابة في هذا، ويتهمونه بالخيانة، والتقصير.

◆◆◆